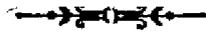


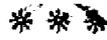
الرافعي والعقاد

... إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب
من كتاب العربية في صدر أيامها !

عباس محمود العقاد



... ذلك كان رأي العقاد في أدب الرافعي قبل بضع عشرة سنة من هذه
الخصومة التي أروى خبرها ، وشتان بين هذا الرأي بيديه العقاد سنة ١٩١٧
في مقال ينشره ليعرّف بكتاب من كتب الرافعي أنشأه في ذلك العهد ، وبين رأيه
الأخير في المهدار الأصم مصطفى صادق كما يصفه في سنة ١٩٣٣



لقد مات الرافعي — رحمه الله — فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من
عداوات ، وما أريد أن أوقظ فتنة ناعمة يتناولني لهيها أول ما يتناول ، فما لي طاقة
على حمل العداوة ، ولا اصطبار على عنق الخصومة ، ولا احتمال على مشقة الجدل ؛
وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جرده الجاحدون فهضت للوفاء به ؛ فإن
كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم أو يسيء ، فما ذلك أردت
ولا إليه قصدت ، ولا به رضيت ؛ ولكنها أمانة أحملها كارهاً . وأضطلع بعبئها
مضطراً ، لأؤديها إلى أهلها كما تأدّت إلي . وإني لأعلم أني بما أكتب من هذا
التاريخ أضع نفسي بالموضع الذي أكره ، وأعرض بها لما لا أتوقع ، ولكن حسبي
خلوص النية ، وبراءة الصدر ، وشرف القصد ؛ ولا على بعد ذلك مما يكتب فلان ،
ولا مما يتوعّد به فلان ، فإن كان أحد يريد أن يصل بي ما كان بينه وبين الرافعي
من عداوة فانقطعت ، أو يربط بي رابطة كانت بينه وبين فلان فانفصمت ، أو يتخذ
من الاعتراض على زاني إلى صديق يلتمس ودّه ، أو يجعل مما يكون بيني وبينه
سبيلاً إلى غرض يرجو النفاذ إليه ، أو وسيلة إلى هوى يسعى إليه — إن كان

أحد يريد ذلك فليمض على إرادته ، فإن لي مهجى الذى رسمت ، فلتفترق بنا الطريق أو تلتق على سواء ، فليس هنا ذاك بما نرى من المضى فى سبيل . ومن الله التوفيق !

وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافى ، ومعركة جديدة من معاركه ، وإنى لأشعر حين أعرض لنش الماضى فأذكر ما كان بين الرافى والعقاد ، أنى كمن يدخل بين صديقين كان بينهما فى سالف العبر شحنة ثم مضت على قلبيهما الأيام فتصافيا ، فإنه لئذ كغر بما لا ينبغى أن يذكر . والموت يحسم أسباب الخلاف بين كرام الناس ؛ فإذا كان بين الرافى والعقاد عداوة فى سالف الأيام فقد انقطعت أسبابها ودواعيها ، فإن بينهما اليوم لبرزخاً لا تجتازه الأرواح إلى آخرها إلا بعد أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية . فهنا ناموس وهناك ناموس ، ولكل عالم قوانينه وشريعته ؛ فما تخلص ضوضاء الحياة إلى آذان من فى القبر ، ولا ينتهى إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلفوا من الآثار فى دنياهم هنا رجل من الأحياء ، وهناك رجل فى التاريخ ، وشتان ما هنا وهناك ؛ فما أتحدث اليوم عن خصومة قائمة ، ولكنى أتحدث عن ماض بعيد . والرافى الذى يحيا بذكراه اليوم بيننا غير الرافى الذى كان ، فما ينبغى أن تجدد ذكراه ماضى البغضاء ؛ وهذا عذيرى فيما أذكر من الحديث ...

لم يكن بين الرافى والعقاد قبل إصدار الطبعة الملكية من إعجاز القرآن غير الصفاء والود ؛ فلما صدر هذا الكتاب فى طبعته الجديدة أحدث بينهما شيئاً كان هو أول الخصام ...

حدثنى الرافى قال : « سمعت لدار المقتطف لأمر ، فوافقت العقاد هناك ، ولكنه لقينى بوجه غير الذى كان يلقانى به ، فاعتذرت من ذلك إلى نفسى بما ألهمتنى نفسى ، وجلسنا نتحدث . وسألته الرأى فى إعجاز القرآن ، فكأنما ألقيت حجراً فى ماء آسن فمضى يتحدث فى حماسة وغضب وانفعال ، كأن ناراً بينه

وبين إعجاز القرآن . ولو كان صممه قومه في الكتاب نفسه لكان على ، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديثه عن القرآن نفسه وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز أصدقك القول يا بني لقد نارت نفسي ساعتئذ ثورة عنيفة ، فكذت أفعل شيئاً . إن القرآن لا أكرم وأعمر . . . ولكني آثرت الأناة ...

قال الراجزي : « وأخذت أناقشه الرأي وأبادلته الحوار في هدوء وإن في صدري لمرجلاً يتلعب ؛ إذ كنت أخادع نفسي فأزعم لها أنه لم يتخذ لنفسه بهذا الأملوب في الهجوم على فك إعجاز القرآن إلا لأنه حريص على أن يعرف ما لا يعرف ، وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعاً به ؛ فأخذت معه في الحديث ، على هدوئي وثورة أعصابه ... ولم أفهم إلا من بعد ما كان يدعو إلى ما ذهب إليه ...

قال : « لقد كان العقاد كاتباً من أكبر كتاب الوفد ، ينافح عنه ويدعو إليه بقلمه ولسانه عشر سنين ، وإنه ليرى له عند « سعد » منزلة لا يواها لكاتب من الكتاب أو أديب من الأدباء ، وأن له على سعد حقاً ؛ ولكن سعداً مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه : « كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » وكتبها للراجزي وليس له عليه حق مما عليه للعقاد ...

قال الراجزي : « ... من هنا يا بني كانت ثورته . كانت ثورة الغيرة ... لا ثورة الأديب الناقد الذي لم يقنع بما كتب الكتاب عن إعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والافتناع . وعرفت ذلك من بعد ، فما بدا علي ما في نفسي من الانفعال ، ومضيت معه في الحديث في وجه جديد . قلت : أنت تجحد فضل كتابي ، فهل تراك أحسن رأياً من سعد ؟ »

قال الراجزي : « وفهم ما أعنيه فقال : وما سعد ؟ وما رأى سعد ؟

قال الراجزي : « وطويت الورقة التي كان يكتب فيها حديثه^(١) . فقبضت عليها يدي ثم قلت : أفتراك تصرح برأيك هذا في سعد لقرائك وأنت تأكل الخبز

(١) كان الراجزي أصم كما يعرف القراء ؛ فن ذلك كان أكثر ما يدور بينه وبين الناس من الحديث كتابة في ورق !

في مدحه والتعلق بذكره ...؟ قال : فأكبر على هذا السؤال في صحيفة من الصحف
تقرأ جوابي كما عرفته الآن ...

قال الرافعي : « وابتسمت لقوله ذلك وأجبتته : يا سيدي ، إن الرافعي ليس
من الحماقة بحيث يسألك هذا السؤال في صحيفة من الصحف فتنشر السؤال ولا ترد
عليه ، فيكون في سؤال وفي صمتك تهمة لي ، وتظل أنت عند قرائك حازماً أريباً
بريئاً من التهمة مخلصاً لذكرى سعد ! »

قال الرافعي : « وما كنت ذلك — وإن ورقته في يدي — عليها بأناملي —
حتى تقبّض وجهه ، وتقلّصت عضلاته ، ثم قال في غيظ وحنق : ومع ذلك فما لك
أنت ولسعد ؟ إن سعداً لم يكتب هذا الخطاب ، ولكنك أنت كاتبه ومزوره ،
ثم نحلته إياه لتصدّر به كتابك فيروج عند الشعب ! »

قال الرافعي : « وما أظقت الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة ، ولا ملكت
سلطاني على نفسي ، فهمت به . . . فدخل بيننا الأستاذ صروف ، فدعا العقاد
أن يغادر المكان ليحسم العراك ويفض الثورة ! »

هذه رواية الرافعي ، حدثني بها غير مرة في غير مجلس ، كما تحدثت بها إلى غيري
من أصدقائه وخاصته ؛ فإلى فيها إلا الرواية والتصرف في بعض الكلام ، تأدياً
مع العقاد وكرامة لذكرى الرافعي .

وقد بدا لي أن أستوثق مما حدثني به الرافعي ، فقصدت إلى الأستاذ فؤاد
صروف — محرر المقتطف — أسأله الرأي في هذه الرواية ؛ إذ كان من شهود
الحادثة على ما رواها الرافعي ؛ فقال :

« ... هذا الحديث في جملته وفي موضوعه لا اعتراض لي عليه ؛ وبقدر ما تطاولت
الذاكرة أستطيع أن أجزم بأن شيئاً من ذلك قد كان ؛ ولكن الذي رواه لك
الرافعي من حديث العقاد في هذه المناظرة ليس على نصّه ؛ قد يكون هذا مُؤدّي
ما قال ولكنه ليس به ، والرافعي — رحمه الله — كان أصمّ ، ولم يكن كل الحديث

بينهما مكتوباً ، وقد قال العقاد في مناظرته كلاماً لم يكتبه ولم يسمعه الرافعي ولكنه تخيَّله على ما أحسب، فكانت روايته للحادثة من بعدُ معنيّ يرويه لا لفظاً يحكيه . « ... ولكنني مع ذلك لا أنكر ما كان من حديث العقاد في هذه المناظرة عن

القرآن وإعجاز القرآن ، ورأيه في ذلك يعرّفه أصحابه !

« ثم لا أدري من أين جاء الرافعي أنني دعوت العقاد أن يغادر المكان . فما كان

ينبني لي هذا ولا هو من آدابي وإنيهما لضيغان في داري ؛ وأحسب أن الرافعي قد فهم ذلك خطأ حين رأى العقاد يغادر المجلس ! »

قلت : وقد أطلعني الرافعي على ورقات قال إن العقاد كان يحدّثه كتابة فيها ،

وفيها عبارات تبرهن على صدق الرافعي في روايته !.. كما أشار الرافعي في كتابه (على السفود) إلى طرف من هذه المحاوره ، وإلى هذه الورقات التي يحتفظ بها برهاناً على بعض ما يصف به العقاد (١)

على السفود

وفرغ الرافعي من مقالات عبد الله عفيفي التي كان ينشرها بعنوان (على السفود) ؛ ثم ذهب مرة لزيارة صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور وما يزال في نفسه شيء مما كان من المحاوره بينه وبين العقاد ؛ فسأله الأستاذ مظهر تتمّة هذه السلسلة في نقد الأستاذ عفيفي ، فاعتذر الرافعي وقال : حسبي ما كتبت عنه وحسبه . قال مظهر : فاكتب عن غيره من الشعراء ؛ إن في هذه المقالات لثلاً يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة !

فتنبه الرافعي إلى شيء في نفسه ، وجلس إلى مكتب في دار العصور فكتب مقاله الأول من كتاب على السفود في نقد العقاد ؛ وتوالت مقالاته من بعد في أعداد المجلة متتابعة في كل شهر . فلما تمت هذه المقالات ، نشرها الأستاذ إسماعيل مظهر

في كتاب قدّم له بمقدمة يأمضائه بين فيها ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب الذي لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه ، ورض إليه بكلمة « بقلم إمام من أئمة الأدب العربي » .

إن هذه الخصومة العنيفة بين الرافعي والمعقاد قد تجاوزت ميدانها الذي بدأت فيه ، ومحورها الذي كانت تدور عليه ، إلى ميادين أخرى جعلت كلاً من الأديبين الكبيرين ينسى مكانه ويقفل أديه ليلغ في عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمّم أو يرى في ذلك معابة عليه . وكان البادى بإعلان هذه الحرب هو الرافعي في مقالاته على السفود ...

هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية في الجيل الحديث كانت لهم هذه الخلة الرذولة في النقد وفي أساليب الجدل . هذان اثنان منهم وكان للرافعي مع كل واحد من الاثنين الآخرين معركة . على أن أشد هذه المارك عنفاً وأبعدها عن حدود الأدب اللائق هي المعركة بينه وبين المعقاد !

وكان بدء هذه المعركة هو ذلك الحديث الذي دار بين الرافعي والمعقاد في دار المقتطف ، حول حقيقة إعجاز القرآن ، وكتاب إعجاز القرآن . وكان للمعاد فيهما رأى غير رأى الرافعي ، فكانت غضبة الرافعي الأولى لكرامة القرآن والمعقاد ينكر إعجازه ؛ ولكتابه والمعقادُ يجحد فضله ؛ ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التي رماه بها المعقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونحله إياه في تقريب إعجاز القرآن ليروج عند الشعب ...

فتمة سبب عام أنشأ هذه الخصومة ، هو إيمان الرافعي بإعجاز القرآن إيماناً لا يتناوله الشك ؛ وسيبان خاصان : هما رأى المعقاد في كتاب الرافعي ، ثم تهمة له بأنه مفتر كذاب ... !

تُرى أي هذه الأسباب الثلاثة هو الذي أثار الرافعي فدفعه إلى الخروج عن الوقار والأدب الواجب فيما أنشأ من مقالات « على السفود » ... ؟ الرافعي يقول :

إنها غضبة لله وللقرآن . وللتاريخ رأى لست أدري أيفارق هذا الرأي أو يلتقي وإياه على سواء ... ؟

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل في هذا الخلاف؛ فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد؛ ثم عن أشياء خاصة تعترض في فضول القول وحشو الكلام؛ فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب الخصام ...؟ الرافى يقول: هذا أسلوب من الردّ قصدت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه؛ حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية في الأدب عند قراء العربية، لا تراهم يستمعون لرأيه عند ما يهيم بالحديث عن إعجاز القرآن . وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية في فكره، ولا يستقيم بيانها على لسانه؟ ... هكذا يقول الرافى!

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء ...

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر في مقدمته لكتاب «على السفود»: «... أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص، ذلك الداء المستعصى الذي كان سبباً في تأخر الشرق عن لحاق الأمم الأخرى ...»

«... وتقدم بهذه المقدمة تعريفاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التي أعتقد بأنه لم يُنسج على منوالها في الأدب حتى الآن!»
«وعسى أن يكون السفود (مدرسة) تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم، ومثالاً يحتذى الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة! ...»

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم يُنسج على منوالها في الأدب الحديث فنعم، وأما أن تكون مدرسةً للتهذيب ومثالاً يحتذى النّقدةُ فلا. فليس بنا من حاجة إلى أن يحتذى النّقدةُ هذا المثال في أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد في العربية.

والحق الذي أعتقده أن في هذا الكتاب — على ما فيه — نموذجاً في النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها . ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليقاً بأن يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أدمُّ الصور وأقبح الألوان ، بما فيه من هجر القول ومر الهجاء ؛ ولئن كان هذا مذهباً معروفاً في النقد للرافعي وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية في هذا الجيل — إننا لنزيد للناقدين في العربية أن يكونوا أصحَّ أدباً وأعف لساناً من ذلك ... !

ذلك رأى قلته للرافعي — يرحمه الله — فما أنكره عليّ ولا اعتذر منه ؛ فما يمتنعني اليوم شيء أن أعلنه صريحاً إلى الأديباء . ولقد همّ الرافعي منذ سنوات أن يجمع كل ما كتب في النقد بعد كتاب (المركة) في كتاب واحد ؛ فأبدت له الرأي أن يضم إلى هذا المجموع مقالات (على السفود) بعد أن يجردها مما يعيها حرصاً على ما فيها من الفن ؛ فارتاح لهذا الرأي واطمأن إليه ، ولكنه لم يفعل ، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته .

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفني البديع مغموراً في الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له الحماة المنتنة وهيئات أن تقبل عليها النفس ؛ وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفن البديع في النقد يكتنفه هذا الكلام النازل من هجر القول ومر الهجاء .

ولقد كان الرافعي نفسه يعترف بأن في الكتاب ما لم يكن ينبغي أن يقول ، وبأن خصمه بما قال فيه كان يملك أن يسوقه إلى المحاكمة ؛ ولكن الرافعي مع ذلك كان مطمئناً إلى شيء آخر ...

قال الرافعي : « ... قال لي قائل : لقد قلت في العقاد ما كان حرياً أن يقفه وإياك أمام القضاء ! ... قلت : ولكني كنت على يقين بأن العقاد لن يفعلها ؛ إنني كنت أهاجم العقاد بمثل أسلوبه في النقد ، وإن مي لورقات بخطه لا يسره أن أجعلها دفاعي أمام المحكمة فيخسر أكثر مما يربح ؛ ولقد قرأت من هذه الورقات

على مستشار كبير فأيقن بما أنا موقن به وحكمت لي محكمته ... ! »
ذلك حديث الرافي ... فهل كان هذا حسبه من العذر فيما كتب ؟
على أن كثيراً من قراء (على السفود) يضعونه في غير هذا الموضع الذي
أضع ؛ مؤمنين بأن في الأدباء طائفة لا يمكن مناقشتها إلا بمثل أسلوب على السفود !

انتشر كتاب (على السفود) وتناوله القراء ، على أن كثيراً منهم لم يعرف
كاتبه إلا بعد سنين ... ؛ وكان في هذا خير للرافي ولسمعته الأدبية ولمكانه
من نفوس القراء ؛ إذ كان العقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، والوفد هو الأمة
كلها ، قراؤها وعامتها وشيوخها وشبابها ؛ فكان العقاد بذلك هو عند الشعب إمام
الكتاب وأمير الشعراء ، لا يعاديه إلا خارج على الأمة أو مارق من الوطنية ،
ولو كانت عداوته في مسألة أدبية لا تتصل بالسياسة ، ولو كانت مناقشته حول
إعجاز القرآن ...

ثم كانت هُدنةً بين الرافي والعقاد ، صمت فيها الحصان طويلاً وكل منهما
يتربص بخصمه لضربه الضربة القاضية ، حتى كان خريف سنة ١٩٣٢
مات المرحوم شوقي في أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، فاهتزت لموته المجامع الأدبية
في مصر والشرق ؛ فأتجد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا اهتم لهذا النبأ
واحتفل به . وتهيأت « المقتطف » لكتابة فصل أدبي عن أمير الشعراء ، فأفرغت
بضع عشرة صفحة من العدد الذي كان موشكاً أن يصدر ، وأبرقت إلى المرحوم
الرافي في طنطا أن يكتب هذا الفصل ويرسله إليها في أيام قبل أن يتم طبع العدد
ولم يكن بين الرافي وشوقي من صلوات الود ما يتيح له أن يعرف شيئاً
من حياته يعينه على دراسة أدبه ؛ ولا كان الرافي مستعداً لهذه الدراسة ،
ولا تهيأت له من قبل أسبابها ودواعيها لينشئ موضوعه على الوجه الذي يرضاه
في ذلك الوقت العاجل . وإن الرافي لكثير الأمانة والتأنق فيما يكتب ، فلا يبدأ

في إنشاء موضوعه حتى يخلى له فكره أياماً وليالي ، يبحث ويوازن ، ويوازن ويستنبط ؛ ثم يتهياً للكتابة وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب . ولكن كل أولئك لم يمنع الرافي أن يجيب محرر المقتطف إلى ما طلب ويرسل مقاله في الموعد المضروب . وكانت دراسةً أعتقد أن أحداً من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي أو يبلغ ما بلغ الرافي بمقاله ؛ فأنصف شوقي ، وجلي عبقريته ، وكشف عن أدبه وفنه ومذهبه . دع عنك بعض هنوات قليلة لا تنض من قيمة هذا البحث الفريد .

وكان مما أخذ الرافي على شوقي وسماه غلطات في النحو أو اللغة ، أن شوقي أخطأ في رفع جواب الشرط من قوله :

إن رأيتي تميلُ عنى كأن لم يك بيني وبينها أشياء !

وهي هناة صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وجهاً من التعليل

وباباً من العذر .

والعقاد أديب له شهرته العريقة في عداوة شوقي والزراية بأدبه وفنه ؛ فما يعرف أدباء العربية أحداً كان أبلغ عداوة لشوقي أو أحد لساناً في نقده من العقاد !

ولكن العقاد لم يكذب بفرغ من قراءة مقالة الرافي في المقتطف ، حتى تناول قلمه ليكتب كلمة يرد بها رأى الرافي في نقد هذا البيت ويعتذر عن شوقي ... وكان للعقاد نصيب من التوفيق فيما كتب !

ليت شعري أفعالها العقاد دفاعاً عن شوقي وهو من هو في عداوته ؟ أم تحدياً

للرافي ... ؟

أفلم يجد العقاد في بضع عشرة صفحة يكتبها الرافي مباهياً بشوقي ، مفاخراً بأدبه وفنه وعبقريته ، شيئاً يستحق الرد والتعليق غير هذه الكلمة ؟ هذا سؤال سألته نفسي يومئذ ، وأحسب أن كثيراً من القراء سألوه أنفسهم ؛ ولكن جواب هذا السؤال معروف لكل من يعرف ما كان بين الرافي والعقاد ، ثم ما كان بين

العقاد وشوقي منذ قريب !

وقال لي الرافي : « ماذا ترى فيما كتب العقاد ؟ »

قلت : « أنا وهو على رأى واحد فيما يردّ به ! »

فقط شفّيته ساخراً وهو يقول : « أخطأت ، وأخطأ العقاد ، وأخطأ المتأخرون

من علماء النحو في العربية ... ليس الرأى ما يقول العقاد وتوافقته عليه ... »

وتملكه عناده وكبرياؤه ؛ فأنشأ مقالة طويلة مسهبّة يردّ بها رأى العقاد ويصر

على تخطئة شوقي في رفع جواب الشرط من هذا البيت ، ويتهم المتأخرين من علماء

النحو بالغفلة وقلة البصر بأساليب العربية ؛ ثم يفيض ويسترسل في بيان الأوجه

التي يجوز رفع جواب الشرط فيها ، وما يصيب منها وما يخطئ .

— وإذا لم يكن لي في هذا المجال أن أصرح بالرأى فيما كتب الرافي في هذا

الموضوع ؛ فإن لي أن أرد كل شيء إلى أسبابه فأزعم أن الرافي لم يكتب ما كتب

خالصاً لوجه العربية ، ولكنها الكبرياء والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام

العقاد في معركة أدبية ... !

ولست أكنم هنا أن الرافي كان يسيء الظن بفهم العقاد لقواعد اللغة ؛

فأرى له شيئاً من مثل ما كتب في ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد

العربية إلا أنهمم بأنه يستعين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة . وأحسبه

قال لي مرة : إن الذي يعين العقاد في ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الجمل !

وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشلاء ، ولكنني أحسب أن الرافي

نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب في الرد على العقاد ، فبقى في نفسه شيء يحمّسه

إلى معركة جديدة ، فلم يلبث إلا قليلاً ثم كانت المعركة الفاصلة ...



وحي الأربعين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر ، ثم أصدر العقاد ديوانه « وحي الأربعين »
ومضى أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان ؛ ثم كان عيد من الأعياد ،
فعدوت على بيت الرافعي لأهنته ، ثم خرجنا نظوف بيوت بعض الأصدقاء ؛
حتى انتهى بنا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسين مخلوف . والأستاذ
مخلوف أديب مطلع ، لا يفوته كتاب مما تخرج المطبعة العربية . فلم يكن ثمة بدء
من الحديث في الأدب ، وفي الشعر ، وفي المطبوعات الجديدة ؛ وهو حديث يحلو
للرافعي ، ويحلو لمخلوف ، ولو استغرق هذا الحديث سحابة يوم العيد من الضحى
إلى العصر ، والبطن خاو يطلب الطعام ، ورائحة الشواء تفوح في بيت المضيف
وفي بيوت الجيران !

وسأل الرافعي مضيفه : « ماذا عندك من الجديد في الكتب ؟ »

وضحك مخلوف وهو يغمز بعينه ويقول : « وحي الأربعين ! »

ووجد الرافعي طلبته ، فدعا بالديوان الذي يود أن يقرأه منذ أيام ويمنعه

من شرائه أنه كتاب العقاد ! ...

وجاء الديوان فوضعه الرافعي بين يديه وقال : « لست أريد أن أتجنى على العقاد

الشاعر أو أحكم في ديوانه برأى قبل أن تنهيا لى أسبابه ؛ وإنى لأخشى أن أفتح

الكتاب فتقع عيني أول ما تقع على أردا ما فيه فأحكم على الديوان ببعضه ،

وقد يكون فيه الجيد ، وما هو أجود ، وما تتقاصر أعناق شعراء العربية دون

الوصول إليه . وإن بيني وبين العقاد لسابق عداوة ، وأنا بريئان من التهمة

وسوء الظن ؛ فما كما الديوان فقلبا فيه النظر ، وتداولوا فيه الرأي ، ثم دلأني

على أجود ما فيه لنقرأه معاً فنحكم له أو عليه مجتمعين ، ثم يكون ما اتفقنا عليه

من الرأي في هذا الجيد المختار هو الرأي في الديوان كله ، من غير أن يتغلب الهوى

أو تتحكم الشهوة ... ! »

ورضينا رأى الرافى ، فأخذنا الديوان نقلبه صفحة صفحة ، ونقرؤه بيتاً بيتاً ؛
والرافى منصرف عنا إلى كتاب بين يديه ... ومضت فترة ، واستبطأنا الرافى فيما
دعانا إليه فقال : « أحسبكم لم تجدا ما تطلبان ! ولن تجدا ... إذن فلنقرأ الديوان
معاً من فاتحته ؛ فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره ... ! »
وتناول الديوان يقرأ منه ونستمع إليه ، ووقفنا عند أشياء ، وتداولنا الرأى
في أشياء ، وكان الأستاذ مخلوف أكثرنا حماسة في النقد ، ومضت ساعات ونحن
نقرأ ، ولكل رأى يديه ، ثم طوينا الديوان وأخذ مخلوف يتحدث في موضوعه ...
وقال الرافى يخاطبه : « ... وما دمت على هذا الرأى فى الديوان فلماذا لا تنشره ؟
إن لك لساناً وبياناً ، وإنه لنقد يستحق أن يقرأه أدباء العربية ... ! »

وتردد مخلوف قليلاً ثم سمع مشورة الرافى ... ونهياً لكتابة نقده ...

ومضى أسبوع ، ثم نشر « المقطم » فى صدره مقالاً مجوداً للأستاذ مخلوف
فى نقد ديوان وحى الأربعين ، تناوله بأدب وهدوء فى بضعة عشر موضعاً ، وأرجأ
بقية النقد إلى عدد تال ... ومضى يومان وكتب العقاد فى صحيفة الثلاثاء من جريدة
الجهاد ردّه على مخلوف ...

لم يكن مخلوف حين كتب مقاله الأول للمقطم مقدراً أن العقاد سيتناوله
بهذه القسوة ، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد ...

لم يرد العقاد ردّ الأديب على ناقده ، ولكنه راح يتهم عليه ويسخر منه
ويستهزئ بعلمه وأدبه ومقدرته على فهم الشعر . وإذ كان مخلوف من مدرسى اللغة
العربية فى مدارس الحكومة ، فإن العقاد قد انتهزها ساحة ليطعن على مدرسى
اللغة العربية فى مدارس الحكومة ، ويلحد فى كفايتهم وعلمهم ، ويعود بالسبب
فى ضعف اللغة العربية فى المدارس على مخلوف وزملاء مخلوف . ولم تسلم مدرسة
دار العلوم التى تخرج فيها مخلوف ، ولم يسلم واحد من مدرسى اللغة العربية ،
من تهكم العقاد وسخريته فى هذا المقال ، لأن واحداً منهم كتب ينقده ويحاول
رده إلى الصواب فيما رآه أخطأ فيه ... !

وكتب مخلوف مقاله الثاني يردّ مطاعن العقاد ، ويتم ما بدأ في نقد وحي الأربعين ؛ ولكن المقطم أغلقت دونه الباب ولم تنشره ، كرامة للعقاد وحرصاً على مودته ...

وغضب مخلوف وتألم ، ولكنه طوى صدره على ما فيه ... وكنا جماعة من مدرسي اللغة العربية نصلي الجمعة كل أسبوع في مسجد المنشاوي بطنطا ، فلقينا هناك مخلوفاً ؛ فما رآه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه بالعتب القاسي ، وكلهم قرأ مقال العقاد في الطمن على مدرسي اللغة العربية بسبب مخلوف ، وقليل منهم من قرأ مقال مخلوف . وحاول مخلوف أن يعتذر ، ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج إخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد !

وقلت للرافعي مازحاً ولقد لقينته بعد ذلك : « لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفاً من إخوانه ، وفيما نال مدرسي اللغة العربية من لسان العقاد ؛ فأنت الذي هجّيت مخلوفاً إلى هذه المعركة ، فانتهدت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانه ؛ وكانت سبباً فيما كتب العقاد عن دار العلوم ومدرسي اللغة العربية ... »

وكان لمخلوف عند الرافعي منزلة ، ولدار العلوم في نفسه مكان ؛ ولكنه أجابني : « وماذا عليّ أنا فيما كتب مخلوف ، وفيما ردّ العقاد ؟ »

قلت : « لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب إخوانه ، ولولا ما كتب مخلوف لبقيت دار العلوم بريئة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد ! »

وقصدت فيما قلت - ومعدرة إلى الأستاذ العقاد - أن أهيج الرافعي للكتابة عن العقاد ، فيشهد أدباء العربية معركة جديدة بين الأديبين الكبيرين يكون لهم من ورائها نفع ومتاع ولذة ... وبلغت ما قصدت إليه ، ووعد الرافعي بأن يكتب ما في نفسه من ديوان وحي الأربعين ، ولكن على شرط : أن أشتري له نسخة على حسابي من الديوان ، لأنه يأبى أن يدفع قرشاً من جيبه في كتاب من كتب العقاد ... !

ونفذت الشرط ، وتهايا الرافعي للكتابة عن وحي الأربعين ؛ ومضت أيام ، ثم دعاني لميلي على مقالته الأول في نقد الديوان ...

صدر «وحي الأربعين» في سنة ١٩٣٣؛ والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق معوج ، وحكومة صدقي باشا تمكّن لنفسها بالحديد والنار ، و«الوفد» ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والمعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق في كل مدينة ، وكل قرية فلا عجب أن يكون المعقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب وأشعر من نظم ، حتى ليثول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين بك ^{الديستوري} الوفاة المتحمس ، لقب أمير الشعراء ، تملقاً للشعب ونزولاً على هواه ...!

ولقد يكون المعقاد يومئذ على حقيقته هو سيد الكتاب وأمير الشعراء أولاً يكون ؛ ولكن هذه هي كانت منزلته عند الشعب يومئذ ؛ فلا يعاديه أحد إلا كان عدو الأمة ، ولا يعرض له أحد بالنقد في أي منشأته الأدبية أو السياسية إلا كان في رأى الشعب « دسيسة » وطنية ...

هذه هي كانت الحقيقة في تلك الحقبة من التاريخ التي امتزج فيها الأدب بالسياسة امتزاجاً جعل طائفة كريمة من الأدباء يؤثرون الصمت واعتزال الأدب على أن ينزلوا بأنفسهم إلى معترك لا يعرفون أين تبلغ بهم عواقبه . ولكن الرافعي رجل — كان — لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ؛ فهو لا يمتبر إلا مذهبه في الأدب وطريقته ؛ وسواء عنده أكان رأيه هو رأى الجماعة أم لا يكون ما دام ماضياً على طريقته ونهجه . ولقد قدمت القول بأن الرافعي كان يتربص بالمعاد لينزل إليه في معركة حاسمة تنقع غلته وتبرى ذات صدره . فما إن تهيأت له الأسباب بصدور « وحي الأربعين » حتى تحفز للعراك ؛ وكان ما بين المعقاد ومخولف هو السبب المباشر الذي ألهب حمية الرافعي ، فنزل إلى الميدان مستكماً أهفته من وداً بسلاحه ، غير مكترث بما قد يناله من غضب الآلاف من القراء الذين يقصدون

العقاد الكاتب تقدساً أعمى فلا يفرقون بين العقاد السياسي والعقاد الأديب ... !
... وأرسل الراجحي يستدعيني إليه ذات مساء ، فرحت إليه بعد العشاء
بقليل ؛ فإذا هو جالس إلى مكتبه ، وعلى مقربة منه « وحى الأربعين » وإن عليه
عباءة حمراء في لون عرف الديك ، وفي عينيه فتور وضعف ينبىء عن السهر والجهد
العميق ؛ فإنه ليدو في مجلسه ذلك كأنه عائد لساعته من معركة حمراء ... !

قال : « لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل ، وإن لى فيه رأياً ؛
فهل تساهرنى الليلة حتى أملى عليك ما أعددت في نقده ؟ »

كانت هذه أول مرة يملى الراجحي علىّ فيها من مقالاته ؛ فكانت فرصة سعيدة
لى ، أشهد فيها الراجحي حين يلتقى الوحي ، وأصعبه في سبحاته الفكرية يقتنص
شوارد الفكر وأوابد المعاني . وكانت فرصة سعيدة له : أن وجد يداً غير يده تحمل
له القلم حين يكتب لنفسه ، ويخلو بفكره ؛ وما تعود قبلها أن يكتب وفي مجلسه
إنسان . وإن أثقل شيء عليه أن يكتب بيده ، ولكن أثقل من ذلك عليه
أن يعرف أن عيناً تلاحظه وهو يكتب ، فما زال يكتب لنفسه منذ بدأ ، متبرماً بهذه
المهمة ، ضيق الصدر بما يبذل في الكتابة من جهد ، وإن خطه لأردأ خط قرأت
في العربية ... حتى اصطفتانى لهذا الواجب ، فلزمته ثلاث سنين لا يهيم بكتابة مقال
إلا دعانى ليمليه علىّ ، حتى انتقلت من طنطا فعاد إلى ما كان من عادته : يملى على
نفسه ويكتب لنفسه ، ولم يسترح إلى كاتب بعدى يشركه في جلوة الوحي
وخلوة الكتابة !

... وجلس فأملى علىّ مقاله من قصاصات في يده لا تزيد إحداها على قدر
الكف ، فما فرغ من الإملاء حتى أذن الفجر ، وحتى كانت هذه القصاصات بضعاً
وعشرين صفحة كبيرة ، تشغل بضعة عشر نهراً من جريدة البلاغ . وكانت ليلة
تحملت فيها من الجهد والمشقة ما لم أحمل في ليلة غيرها ، فقامت منهوك القوة عيان ،

وقام الرافعي في مثل نشاط الشاب في عنفوانه ، كأنما كان عليه عبء فرماه عن كتفيه ... !

وكان بين البلاغ والعقاد خصام ، وكان بينه وبين الرافعي مودة ، فما كادت تصل إليه مقالة الرافعي في البريد المستعجل ظهر ذلك اليوم ، حتى أعلن عنها وبشر القراء أن ينشرها في غد ... وشغلت من البلاغ ثلاث صفحات في يومين ... وكان نقداً صراً حامياً اجتمع فيه فن الرافعي ، وثورة نفسه ، وحدة طبعه ، وحرارة بفضائه أستطيع أن أقول ويقول معي كثير من أدباء العربية : إن هذه المقالة هي خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر ، وأقربها إلى المثال الصحيح ، لولا هفوات قليلة يعفيه من تبعها أنه إنسان !

من قرأ « على السّفود » فعابه على الرافعي وأنزله غير ما كان ينزله من نفسه ، فليقرأ مقال الرافعي في نقد « وحى الأربعين » ليرى الرأي المجرد في شعر العقاد عند الرافعي .

ومضى يوم واحد ، وظهرت صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد وفيها رد العقاد على الرافعي ، وقد نفذ إليه من باب لم يحسب الرافعي حسابه ؛ فتغير وجه الحق ، ودارت المعركة حول محور جديد ...

كان عنوان مقالة العقاد « أصنام الأدب » فيما أذكر ، وكان مدار القول فيها هو الطعن على رجلين : هما إسماعيل مظهر ، والمهذار الأصم مصطفى صادق الرافعي ، وكان أكثرها سباباً وشتيمة وأقلها في الرد والدفاع ، على أن العقاد لم يرد رأي الرافعي فيما أخذ عليه من مآخذ إلا في مواضع قليلة ، وترك الرد في أكثر ما عاب عليه الرافعي ، مستعيضاً عن الرد بالشم والسباب ...

وإذا كان السبب مفهوماً في طعن العقاد على الرافعي وشتمته إياه ، فأى سبب حمل العقاد على أن يشرك الأستاذ إسماعيل مظهر مع الرافعي فيما وجّه إليه من الشتم والتهمة ؟

جواب ذلك يفهمه من يذكر أن الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور ،

هو طابع كتاب « على السفود » وناشره ومروجه . أفنستطيع أن نحكم من هذا بأن العقاد لم يكن يعنى الرد على مقال الرافى الأخير وحده ؛ ولكنه وجدها فرصة سانحة لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافى وصاحبه الذى أغراه على كتابة « على السفود » .

وكان الباب الذى نفذ منه العقاد فى الطعن على الرافى ، هو اتهامه فى وطنيته ، وإيهاهه قراءه بأن الرافى لم يكن لينقده إلا لأنه هو العقاد السياسى الوفدى عدو الحكومة المتسلطة على الناس بالحديد والنار ! وحسبك بها من تهمة حين يقولها العقاد ! إن للعقاد مفاجآت عجيبة فى النقد ، تمثل العقاد الكاتب المرن المحتمل فى أساليب

السياسة ، أكثر مما تمثله ناقداً محيطاً يدفع الرأى بالرأى والبرهان بالبرهان !

وقرأت مقالة العقاد فى الرد على الرافى ، فوجدت أسلوباً فى الرد يؤلم ولا يفحم ، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج ؛ فما فرغت من قراءة المقال حتى تمثل لى الرافى مرىب الوجه من غيظ وغضب ، مزبد الشدقين من حنق وانفعال ؛ فسررت أن أسى إليه قبل ميعادى لأراه فى غيظه وحنقه وانفعاله ، فانهزت ساعة فراغ فى الظهر ، فضيت إليه فى (المحكمة) ؛ فما كاد يرانى مقبلاً عليه حتى هتف بى وهو يتسم ابتسامة السرور ثم قال : « أقرأت مقالة العقاد ؟ » قلت : « نعم » قال : « فاذا رأيت فيها ؟ » قلت : « لقد كان شديداً مؤلماً ! » فضحك وقال : « والله ما رأيت كالليوم ! لقد ضحكت حتى وجعنى قلبى من شدة الضحك ... إنه لم يكتب شيئاً ولم يردّ على شىء ؛ إن سبابه وشتمه لن يجعلاه عند القراء شاعراً ^{عظيماً} كما يشتهى أن يكون ، وإن حسب أنه بذلك يكسب المعركة ؛ وقد حق عليه ما قلت فيه ، وإنه ليعترف ؛ إن فراره من الرد إلى السباب والشتيمة ليس إلا اعترافاً بالعجز ... »

قلت : « إذن فأنت لا تنوى الرد ؟ »

قال : « وأى شىء تراه يستحق الرد فيما كتب ؟ »

قلت : « ولكن القراء لن يفهموا سكوتك على وجهه ، ولن يسموه

إلا انسحاباً من المعركة ... ! أفترضى أن يقال عنك ... ؟ »

وبدا على الرافى كأنه اقتنع ، وهاجته كلمتى مرة أخرى إلى النضال . ومعذرة
ثانية إلى العقاد !

إن معركة تدور رحاها بين العقاد والرافى جديرة بأن يحتفل لها الأدباء وأن
تنال من اهتمامهم أوفى نصيب ، وإن لهم فيها لمتاعاً ولذة وفائدة ، وما كان لى أن
أن أقنع وقد هجت هذه المعركة بما فيها من متاع ولذة وفائدة بأن تنتهى من أول شوط!
وقال لى الرافى : « فهل توافينى الليلة لأملى عليك ؟ » .

فواعده ؛ وذهبت إليه فى المساء فأملى علىّ فصلاً من نسخته الخاصة لكليّة
ودمنة بعنوان « الثور والجزار والسكين ! » ثم أتمه مقالاً فى الرد على العقاد .
وكان فصلاً قاسياً عنيفاً ، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه ، إذ لم يكن
المقصود به النقد وحسب ، بل الردّ والسخرية والإيلام ، ثم قطع السبيل وتدعيم
الدليل وتقرير المعنى فيما قدّم من مواضع النقد .

ثم رد العقاد ليعلم انسحابه من المعركة شاكراً للذين أيدوه ، معذراً من عدم
الاستمرار فى مناقشة دعوى الرافى ! واستمر الرافى يكتب حتى فرغ ...
وكان النصر للرافى عند طائفة ، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقاء
العقاد الكاتب الوطنى الكبير ، إذ لم يروا عداوة الرافى له فى الأدب إلا دسيّة
سياسية من خصوم العقاد !

وانتهت المعركة الأخيرة بين الرافى والعقاد ، ولكن الرافى لم يقتنع بما نال
من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرقون بين الأدب والسياسة ، إذ كان
على يقين أنه وإن كانت له الغلبة ، قد خسر أكثر الطائفتين من قرائه لأنهم على
مذهب العقاد السياسى ، فظل مغيضاً محققاً إلى حين ...

ومضت سنتان ، وتقلبت السياسة المصرية من تقلباتها ، فإذا العقاد الذى كان

كاتب الوفد الأول خارج على الوفد ، يطمئن عليه وعلى رئيسه ؛ وأنصارُ الوفد ما يزالون إلى يومئذ أكثر الأمة ... ووجد الرافعي الفرصة سانحة لينتقم كما وليستخدم السياسة في النيل من خصمه في الأدب فيكيل له صاعاً بصاع ويحاربه بمثل سلاحه ، فكتب مقالاً بغير توقيع في كوكب الشرق، جريدة الوفد ، بعنوان « أحمق الدولة » وكان مقالاً له رنين وصدى ...

ونشر في (الرسالة) يومئذ كلمات تحت عنوان « كلمة وكليمة » عرض فيها بالعقاد الخارج على الوفد تعريضاً أليماً يؤذيه ، لم يتنبه له إلا القليل .

وكان مقاله عن العقاد في كوكب الشرق ، وكلياته في الرسالة، سبباً في أن يدعوه الأستاذ توفيق دياب ليحرر في (الجهاد) بأجر كبير ؛ ولكن لم يتم بينهما اتفاق ولم تكن تسنح للرافعي سانحة لفيظ العقاد إلا انتهزها ، فما كتب الرافعي عن شاعر من الشعراء بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضاً بشعر العقاد . ومن ذلك ما كتب عن الشاعر المهندس على محمود طه في المقطم ، وما نشره عن الشاعر محمود أبو الوفا في الرسالة . ومقالته « بعد شوقي » معروفة مشهورة ، وكلها تعريض بشعر العقاد الذي نحله الدكتور طه حسين إمارة الشعر في يوم من الأيام بعد شوقي !

والعداوة بين الرافعي والعقاد من العداوات المشهورة بين أدباء الجيل ، ولها أثر أي أثر فيما أنتج كل من الأدبيين الكبيرين في أدب الوصف ؛ ولا تداني هذه العداوة في الشهرة إلا العداوة بين الرافعي وطه حسين . وأحسب أنه كان في الإمكان أن يجتمع العقاد والرافعي في تحرير الرسالة لولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة . قال لي الأستاذ الزيات صاحب الرسالة مرة قبيل موت الرافعي : « وددت لو يكتب العقاد في الرسالة ! ولكننا يمنعني من دعوته

إلى ذلك أننى لا أستطيع أن أنشر له وللرافعى فى عدد واحد ! »

قلت : « فما يمنع ؟ »

قال : « أنت تعرف أخلاق الرافعى ، وأنا أعرف أخلاق العقاد ، وإن لكل منهما اعتداداً بنفسه بإزاء صاحبه ، فأى المقالين أقدم وأيهما أؤخر فى ترتيب النشر ؟ إن تقديم مقال على مقال ليس شيئاً ذا بال ، ولكنه مع الرافعى والعقاد له شأن أى شأن ! »

وظل صاحب الرسالة معنياً بهذا الأمر ، حريصاً على أن يجمع بين الأديبين الكبيرين فى مجلته ، وهو يلتمس السبيل إلى ذلك فلا يوفق ، حتى مات الرافعى فأنحلت المشكلة ؛ ودخل العقاد ، ولكن بعد ما خرج الرافعى !
رحم الله الراحل ، ونفع بالباقي !

